نفسية المراهق من مذكراته (٢)*

بقلم

عبد المنعم الملجي

مدرس علم النفس بمعهد التربية

سن التمرد

عندما يتأمل المراهق ذاته ، ويديم فيها النظر . يكتشف على نحو يكاد يكون فجائيًا : عالما بأسره، عالما داخليا يقابل العالم الخارجي الواقعي ؛ زاخرا بالمشاعر والعواطف والآراء ، وكلها أمور جديدة غامضة يود لو سبر غورها ، وكشف الستر عن سرها . وهو من أجل هذا لا يكتفي بالعكوف على ذاته متأملا ومحللا ؛ ومسجلا للمذكرات أحيانا ؛ بل يبدي ميلا ظاهرا للقراءة ؛ ولكنه يتخير من الكتب ما يعينه على كشف أسرار نفسه ؛ أو على حل مشكلاته النفسية ، أو ما يقدم له الأجوبة الشافية على الأسئلة الفلسفية التي تعرض له بخصوص الوجود ونشأته ؛ والإنسان ومصيره . والخالق وحقيقته . . . فهو يفضل القصة العاطفية عن قصص المغامرات التي تروق الطفل قبل سن المراهقة ؛ ويؤثر القصيدة الشاعرية على الوصف الواقعي .

قراءات المراهق إذن تعزز تأملاته ، وتزيده إحساسا بالانفصال بين عالمه النفسي والعالم الخارجي . وينضاف إلى عامل القراءة عامل الصداقة أو بالأحرى عامل الحب ، فهو حادث جديد في حياة المراهق ؛ يغمره بفيض من المشاعر الحادة التي تهزه هزا عنيفا لما تنطوي عليه من جدة وغرابة . وما يمازجها من حزن وخوف وكبت . وأحلام لذيذة وأمان جميلة . أضف إلى ذلك عامل يقظة التفكير الشخصي ؛ إذ يقف المراهق من الكون موقف التساؤل والبحث والنقد ، لا يعنيه

* انظر القسم الأول من هذا المقال في عدد فبراير ١٩٥٠ .

أن يكتشف حقائق الأمور بقدر ما يعنيه أن يبحث عنها . هذه العوامل جميعا تذكى تأملاته الذاتية ، وبالتالى تهديه إلى ما تنطوى عليه نفسه من طاقة هائلة ، وإمكانيات شاسعة . فلا يلبث تأمله لذاته أن يستحيل إلى إعجاب بها يبلغ حد الزهو والشعور بالتفرد والتميز . وذلك ما جعل الكاتب الفرنسى Maurice Débesse يسمى مرحلة المراهقة أزمة الأصالة(١) . ذلك أن العكوف على الذات وإن كان يشعر المراهق بالوحدة والغربة ، ومن ثمة كان الحزن والشجن ، فهو يشعره فى نفس الوقت بقيمته الذاتية . ومن ثمة كان الزهو والغرور .

هنالك يرى المراهق نفسه جديرا بالوقوف من المجتمع موقف النقد : يمتحن نظمه وعقائده وتقاليده ، ويفكر فى رأى أسرته فيه ، ومعاملتها له . وغالبا ما تكون على عهده بها ، غير آبهة به ، ولا مقرة بجولته وحقوقه كشخص ذى قيمة خاصة ، ويغيظه عجزه عن تحقيق آماله العريضة ، ومشروعاته الضخمة ، وهو لا يرى هذا العجز راجعا إلى قصور إمكانياته وضآلة قدراته إن قورنت برغباته . إنما يراه راجعا لعقبات تضعها الأسرة فى طريقه ، أو يضعها المجتمع على العموم . فتكون النتيجة أن شعوره بالتميز من البيئة يصبح فى نفس الوقت شعوراً بعدم الوفاق بينه وبينها . ومن هنا تحتدم فى نفسه الرغبة فى تأكيد ذاته ، تأكيدا يتوقف شكله على إمكانيات المراهق من ذكاء وقدرة على التكيف ، وعلى موقف البيئة منه ، ولكنه فى جوهره تمرد على المجتمع خفيا كان أو صريحا ، تمرد قد يؤدى أحيانا إلى عواقب وخيمة ، ولكنه فى كل حين وسيلة المراهق إلى التكيف فى الطور الجديد ، وخطوة لا بد منها تؤدى فى النهاية إلى طور النضج واكتمال النمو النفسى . ويكون التمرد على الأسرة ، والمدرسة ، والدين ، والتقاليد ، والدولة . وأحيانا على الإنسانية جمعاء ، وأغرب من كل هذا تمرد المراهق على نفسه كما يحدث فى حالات الرهبنة والانتحار .

التمرد على الأسرة

لا أقصد بالتمرد تلك الخلافات الناجمة عن تعارض رغبات الفرد مع إرادة الأسرة فى الظروف المعتادة ، فذلك أمر قد يوجد على أشده إبان الطفولة ،

(١) La Crise d'Originalité Juvénile, Maurice Débesse, Paris, Librairie Félix Alcan, 1936.

ولكنني أقصد به تلك الخلافات التي قد لا يكون لها مبرر من تصرفات الأسرة ؛ لأنها ناجمة عن سعي المراهق الخفي إلى التحرر من نزعاته الطفلية . وفض الروابط الوجدانية القديمة التي تفرض عليه أن يكون تابعا للوالدين . تمرد المراهق إذن هو المظهر الخارجي لمحاولة التحرر من التبعية الطفلية . وتحقيق الاستقلال الوجداني الذي هو غاية التطور النفسي وسمة النضج واكتمال النمو . إلى هذه الغاية يوجه المراهق طاقته النفسية على غير وعي منه ؛ فلا عجب إذن أن نرى التمرد على أقرب الناس إلى قلب الطفل . وأشدهم عطفا عليه ، طالما أن هذا العطف قيد وجداني يعرقل التقدم إلى الغاية المرجوة . وأعني بها التحرر من التبعية الطفلية ؛ ولا عجب أن يكون شعور المراهق نحو الأب أو الأم — أو من يقوم مقامهما — مزيجا من الحب والعدوان . أي مصدرا لصراع نفسي أليم لا يخلو من الشعور بالذنب الناجم عن الرغبات العدوانية تجاه أناس بذلوا له الحب وقدموا الرعاية ؛ ثم صراع آخر بين رغبتين متناقضتين : أولاهما الرغبة اللاشعورية في الركون إلى دعة الطفولة وما يحظى به المرء فيها من رعاية وحب وتحرر من التبعة . وثانيتهما التطلع إلى التحرر والاستقلال وما ينجم عنهما من نضج . وسعيد من المراهقين من يجد في السلطة التي يتمرد عليها مبررا لتمرده ، كالقسوة أو الإهمال لشأنه ، فهو حينئذ يمنجاة من الشعور العنيف بالذنب ؛ أو من يجد من الأسرة عونا على توجيه طاقته النفسيه وجهة إنتاجية ، وعلى التحرر في غير عنف من التبعية الطفلية .

تمرد المراهق على السلطة العائلية لا يرجع إلى أسباب في العائلة ذاتها ، بقدر ما يرجع إلى الأسباب النفسية التي تبرز في مرحلة الانتقال من الطفولة إلى النضج . وقد تكون أحوال الأسرة طيبة ، والظروف فيها ملائمة للمراهق مما يقلل حدة التمرد ، وقد لا يظهر في شكل إيجابي صريح ، دون أن يعني ذلك انعدام عنصر التمرد . فقد تنطوي عزلة المراهق ، وإعراضه عن أي نشاط اجتماعي ، على تمرد سلبي ، واحتجاج صامت . وقد لا يجد المراهق سببا يدعوه إلى الثورة على الأب إن كان الأب صدوقا متفهما ، فيبقى على علاقته الحادثة به ؛ مما قد يشعر بانعدام التمرد ، ولكن نظرة فاحصة قد تبين عنه في شكل مقنّع . من ذلك ما لحظته على أحد تلامذتي إذ كانت علاقته بأبيه على خير ما يرام ، وموقف الأب منه موقف الصديق لا موقف السلطان . وكان الأب طبيبا . فلما حصل الابن على شهادة التعليم الثانوي بتفوق يجيز له الالتحاق بكلية الطب التي يحلم

بها جميع طلبة القسم العلمى ؛ إذا به يرفض رفضا باتا — رغم إلحاح أبيه وأساتذته — الالتحاق بكلية الطب ، ويسخر من مهنة الطب ، ويعمد إلى الالتحاق بكلية الزراعة شأن غيره ممن لم يسعدهم الحظ فالتحقوا بها رغما عنهم .

وقد لا يتمرد المراهق على الأب أو مهنته ؛ فيحول هذه النزعة العدوانية إلى ما يعتنقه الأب من عقائد ويخضع له من تقاليد .

وإن القسط الأكبر من سورات الغضب التى تعانيها الأسر من أبنائها فى سن المراهقة ، تثيره أسباب فى غاية التفاهة : تأخر موعد الطعام ، إصراره على أن يستذكر دروسه فى أفخم حجرات المنزل دون مراعاة للنظام حتى إذا اعترض عليه عد ذلك من جانب الأسرة عتا واعتداء على حقوقه ، وغير ذلك من أمور لا تتناسب مع عنف ثورته . كل شئ فى المنزل مصدر ضيق . الأب متحكم ، والأم ظالمة ، والإخوة غيورون ؛ والحقيقة أن الابن ديكتاتور ناشئ بحكم التوتر النفسى الذى ينتابه فى هذا الطور ؛ والديكتاتور يقنع بأية غلطة كى ينفس عن النزعة العدوانية . بل إن تسامح الأب ، أو عطف الأم ، قد يصبح مثارا لغضب المراهق وحنقه . وقد عرفت مراهقا ينحو باللائمة على أمه المتحكمة ، وينعى عليها ظلمها لأبيه ؛ ولكنه فى نفس الوقت دائم الثورة على أبيه لضعفه ورقته . وقد بلغت العلاقة بينه وبين والديه أشد حالات السوء ، وكادت فى كثير من الأحيان أن تفضى إلى عواقب وخيمة نظرا لعدم استعداد الأسرة لتفهم مشكلة الابن . ولم يهدئ حدة هذه الثورة غير مرور الأعوام ، واهتداء الابن إلى منصرفات أخرى لطاقته النفسية الهائلة ؛ ونزعاته العدوانية المتفززة .

ولا تخلو مذكرة أى مراهق عمد إلى تسجيل حالاته النفسية ، من نزعة التمرد هذه على أسرته ، مع تفاوت فى مثيراتها ، وحدتها ، ومدى ما تنطوى عليه من صواب . وفيما يلى أقتطف بضع فقرات من مذكرات الدكتور طه حسين عن موقف له مع والده فى هذه الفترة من حياته (فى الثالثة عشرة من عمره) . حين عاد فى إجازته من الأزهر ، وكان يصور له اعتداده بنفسه أن يقابله الأهل والأقارب بكل إجلال كما كانوا يلقون أخاه الشيخ من قبل ، ولكن القوم لا قوه من حيث هو غلام صغير دون أن يفطنوا إلى التطور الذى يجرى فى داخلية نفسه فيصور له أنه أصبح شيخا ينبغى أن يحظى بما يحظى به شيوخ الأزهر من حفاوة وترحيب :

« . . . وكذلك أضيع على الصبي ما كان يدبر في نفسه من الأماني ، وما كان يقدر من المستقبل كما كان يستقبل أخوه الشيخ في ابتهاج وحفاوة ، واستعداد عظيم . . .

« ومضت الحياة بعد ذلك في الدار والقرية كما كانت تمضي قبل أن يذهب الصبي إلى القاهرة ويطلب العلم في الأزهر . كأنه لم يذهب إلى القاهرة . ولم يجلس إلى العلماء ولم يدرس الفقه والنحو والمنطق والحديث ، وإذا هو مضطر كما كان يضطر من قبل إلى أن يلقى سيدنا بالتحية والإكرام ويقبل يده كما كان يفعل من قبل ، ويسمع منه كلامه الفارغ الكثير كما كان يسمعه من من قبل . وإذا هو مضطر إلى أن يذهب بين وقت وآخر إلى الكتاب لينفق الوقت . وإذا التلاميذ يلقونه كما كانوا يلقونه قديما لا يكادون يشعرون بأنه غاب عنهم ، ولا يكادون يسألونه عما رأى أو سمع في القاهرة ، ولو قد سألوه لخبرهم بالكثير . . .

« وقد استقر إذن في نفس الصبي أنه مازال ، كما كان قبل رحلته إلى القاهرة ، قليل الخطر ضئيل الشأن لا يستحق عناية به ولا سؤالا عنه . فآذى ذلك غروره وقد كان غروره شديدا ، وزاده ذلك إمعانا في الصمت وعكوفا على نفسه وانصرافا إليها .

« ولكنه لم يكد يقضي أياما بين أسرته وأهل قريته حتى غير رأى الناس فيه ولفتهم إليه ، لا لفت عطف ومودة ولكن لفت إنكار وإعراض وازورار . فقد احتمل من أهل القرية ما كان يحتمل قديما يوما ويوما وأياما . ولكنه لم يطق على ذلك صبرا ، وإذا هو يثبو على ما كان يألف ، وينكر ما كان يعرف ، ويتمرد على من كان يظهر لهم الإذعان والخضوع . كان صادقا في ذلك أول الأمر فلما أحس الإنكار والازورار والمقاومة تكلف وعاند وغلا في الشذوذ . سمع سيدنا يتحدث إلى أمه ببعض أحاديثه في العلم والدين ، وببعض تمجيده لحفظة القرآن وحملة كتاب الله ، فأنكر عليه حديثه ورد عليه قوله ولم يتحرج من أن يقول هذا كلام فارغ . فغضب سيدنا وشتمه وزعم أنه لم يتعلم في القاهرة إلا سوء الخلق وأنه أضاع في القاهرة تربيته الصالحة .

« وغضبت أمه وزجرته واعتذرت إلى سيدنا وقصت الأمر على الشيخ (أبيه) حين عاد فصلى المغرب وجلس للعشاء ، فهز رأسه وضحك ضحكة سريعة

فى ازدراء للقصة كلها وشماتة بسيدنا . فلم يكن يحب سيدنا ولا يعطف عليه .

«ولو وقف الأمر عند هذا الحد لاستقامت الأمور ؛ ولكن صاحبنا سمع أباه يقرأ دلائل الخيرات كما كان يفعل دائما إذا فرغ من صلاة الصبح أو من صلاة العصر ؛ فرفع كتفيه وهز رأسه ثم ضحك ، ثم قال لإخوته : إن قراءة الدلائل عبث لا غناء فيه . فأما الصغار من إخوته وأخواته فلم يفهموا عنه ولم يلتفتوا إليه . ولكن أخته الكبرى زجرته زجرا عنيفا . ورفعت بهذا الزجر صوتها فسمعها الشيخ ولم يقطع قراءته ولكنه مضى فيها حتى أتمها ؛ ثم أقبل على الصبى باسما يسأله ماذا كان يقول ! فأعاد الصبى قوله . فلما سمعه الشيخ هز رأسه وضحك ضحكة قصيرة وقال لابنه فى ازدراء : ما أنت وذاك ! هذا ما تعلمته فى الأزهر ؟ . فغضب الصبى وقال لأبيه : نعم وتعلمت فى الأزهر أن كثيرا مما تقرأه فى هذا الكتاب حرام يضر ولا ينفع ؛ فما ينبغى أن يتوسل إنسان بالأنبياء ولا بالأولياء وما ينبغى أن يكون بين الله وبين الناس واسطة وإنما هذا لون من الوثنية .

« هنالك غضب الشيخ غضبا شديدا ولكنه كظم غضبه واحتفظ بابتسامته وقال فأضحك الأسرة كلها : اخرس قطع الله لسانك . لا تعد إلى هذا الكلام وإنى أقسم لئن فعلت لأمسكنك فى القرية ، ولأقطعنك عن الأزهر ولأجعلنك فقيها تقرأ القرآن فى المآتم والبيوت . ثم انصرف ، وتضاحكت الأسرة من حول الصبى ، ولكن هذه القصة على قسوتها الساخرة لم تزد صاحبنا إلا عناداً وإصرارا[1]».

وينبغى ألا يغيب عن بالنا ما ينطوى عليه شعور المراهق نحو السلطة الوالدية من تناقض وازدواج عاطفى ، بمعنى أنه يتمرد عليها ، ويصارحها بالعدوان أحيانا ، ولكنه فى نفس الوقت فى حاجة إلى عطفها ورعايتها ؛ وتتضح هذه الحاجة بعد سورات الغضب حين يخلو المراهق إلى نفسه فيعض بنان الندم على ما بدر منه ، أو حين يضطر إلى الرحيل بعيدا عن الأسرة فى مدرسة داخلية مثلا فيكتب للوالدين من الرسائل ما يفيض بالحب والشوق .

وهذه فتاة مراهقة تكتب إلينا الرسالة التالية[2] :

« إنى أود أن أصارحك بمشكلة تسبب لى متاعب جمة فى حياتى . وهى أننى تلميذة حادة الطباع ، ولا أستطيع ضبط شعورى حين توجه إلى إحدى

(١) كتاب الأيام . الجزء الثانى ص : ١٤٠ — ١٤١ — ١٤٢ — ١٤٣ .

(٢) مجلة الطالبة . عدد مايو سنة ١٩٥٠ . عبد المنعم المليجى « مشكلتك وحلها » .

صديقاتى أية كلمة تثيرنى . وأحياناً أتشاجر مع والدتى فأوجه لها كلمات لا يليق بفتاة أن توجهها إلى والدتها ، فتغضب منى . وفى بعض الأحيان أثور بسبب أشياء تافهة . وفى هذه الحالة لا أدرى ماذا أفعل ماذا أقول . وعندما أعود إلى صوابى أندم على ما بدر منى . فهل هناك حل لهذه المشكلة ؟ أكون شاكرة لو تفضلت بإسداء النصح إلىّ . »

وهذا فتى فى السابعة عشرة من عمره يفصح عن نفس الموقف الوجدانى المزدوج فى قوله :

« شعورى نحو الوالدين هو شعور حب ، وشعور بعدم إمكان الانفصال عنهما . إنما أشعر بشىء من الحقد والغيرة عندما لا يلتزمان العدل فى تلبية مطالبنا أنا وإخوتى » . ولكن توفى والد الفتى فانتقلت السلطة إلى الأم : « كما أنه قبل وفاة والدى كان شعورى نحو أمى بالحب ضعيفا ، وكنت أعتقد أنه يمكن الاستغناء عن الأم ما دام الأب موجودا . ولكن تغير الحال تماما بعد وفاة والدى ، فقد انتقل كل الحب والاحترام والخوف الذى كنت أكنه لوالدى إلى أمى ، وأصبحت أشعر نحوها بما كنت أشعر نحو أبى فى حياته . »

* * *

ومن مظاهر التمرد على الأسرة ظاهرة واضحة جدا بين سن ١٢ و ١٨ هى ظاهرة الهرب . وطالما يكون الهرب لغير سبب . وفضلا عن كون الهرب تعبيرا عن الضيق بالسلطة المنزلية . والتطلع إلى التحرر والاستقلال ، فهو عنصر لا ينفصل عن النزعة الرومانسية العامة التى تسم مرحلة المراهقة[1] . وقد لاحظ كثير من علماء النفس وأطباء الأمراض العقلية أن رغبة الهرب والرحيل إلى بعيد تظهر عند المصابين بالبارانويا والجنون المبكر[2] والصراع . ولكن لا يعنى هذا أن كل حالة هرب هى بالضرورة حالة جنون . إنما الهرب تعبير عن الرغبة فى التخلص من الضغط والتحرر من سلطة الأسرة وتعبير عن القلق الذى ينتاب المرء فى فترة المراهقة . على أن وفرة ظاهرة الهرب فى طور المراهقة لا تبدو لنا إن اكتفينا بحالات الهرب التى تمت فعلا ، إنما ينبغى إن أردنا فهمها على حقيقتها ألا نغفل المحاولات التى لم تتم . وإن جزءا لا يستهان به من أحلام اليقظة ليتركز

(١) انظر مقالنا فى العدد ٣ من مجلد ٥ من مجلة علم النفس عن نفسية المراهق من مذكراته .

(٢) Dementia praecox

حول هذا الأمل فى التحرر من سلطان الأسرة والهجرة إلى عالم ناء يعيش فيه المرء وحيدا ، حرا من القيود والتقاليد الاجتماعية ؛ وفضلا عن هذا هنالك من الأمور ما يقوم مقام الهرب على نحو ما ، دون الانقطاع التام عن الأسرة ، من ذلك ما نلمسه لدى بعض المراهقين إذ يصرون على الالتحاق بالقسم الداخلى بمدرسة ما ، أو الانتقال للعيش فى منزل أحد الأقارب ، أو التطوع للخدمة العسكرية على غير رغبة الأسرة كما حدث إبان حرب فلسطين الأخيرة إذ تقدم عدد كبير جدا من صغار الشبان بطلبات التطوع . كل هذه وسائل تبعد المراهق عن سلطة الأسرة وتجنبه مضايقاتها ، ومن ثمة تجنبه حدة السخط الذى يكنه لوالديه عادة فى هذا الطور من حياته .

وقد يكون من الطريف أن نسجل فى مقال قادم خواطر بعض المراهقين الذين أتيحت لهم تجربة الهرب مرة أو مرات ، لنطلع على ما فيها من أحلام وأمان تصور لنا فى وضوح التناقض أو الصراع الوجدانى الذى يرزح المراهق تحت عبئه . فهو هارب من الضغط ، ولكنه يجتر أفكارا لذيذة منها أن الأسرة بأسرها تبحث عنه فى كل مكان ، والأم تبكى حزنا لفراقه ، والأب يسعى هنا وهناك مفتشا عنه ، وقد يقرأ فى الجرائد دعاء منه أن « عد ولك ما تريد » فيشعره كل ذلك بقيمته . وفى الهرب يسعد المراهق بالعزلة التى يهفو إليها ، والاتحاد بالطبيعة « ذلك الصديق الجديد » ، وفيه إشباع للنهم إلى الكشف والمخاطرة. والخلاصة أن الهرب ينطوى على جميع أمانى الشباب فى صورة حسية رمزية عندما يلمسون ما لهم من قيمة ذاتية .

ولكن هل يعنى تمرد المراهق على الأسرة اقتلاع جذور الحب البنوى من قلبه ؟ وأين ذهب الحب الذى كان يكنه طوال طفولته لأفراد أسرته ؟ لقد أسلفت أن التمرد مظهر خارجى لموقف وجدانى داخلى يمتزج فيه عنصران متناقضان : أحدهما التعلق الطفلى بالوالدين وثانيهما التطلع إلى الاستقلال الوجدانى عنهما . فإن كان التمرد محاولة لتحقيق العنصر الثانى فهو لا يستبعد العنصر الأول . وهذا هو السر فيما يستشعره المراهق من خجل وندم عقب كل ثورة من ثوراته كما أسلفنا . وكثيرا ما ينتج عن وفاة أحد الوالدين أن تزول الكراهية السطحية التى كان يحسها المراهق إزاء المتوفى ، ويكشف عن محبة زائدة (كانت من قبل كامنة) للشخص الآخر الذى لا يزال على قيد الحياة . وهذا يفسر لنا

التماسك الوجداني الذي يحدث فجأة عقب وفاة أحد الوالدين ، ذلك أن الوفاة كفيلة بالقضاء أحد طرفي الصراع في كثير من الحالات . وهو عنصر البغض .

الحب البنوي إذن لا يختفي ولكنه يمتزج بعنصر وجداني آخر . وفضلا عن ذلك فهو حب يختلف عن حب الطفل لوالديه . لم يعد حبا أنانيا أعمى ؛ بل يصبح حبا مصطبغا بعنصر عقلي جديد هو الحكم . لا يبقى الأب ذلك الكائن المطلق الذي لا يعجزه شيء ؛ ولا يدانيه أحد في قدرته ، بل هو في نظر المراهق إنسان كغيره من الآدميين قابل للنقد ، غير معصوم من الخطأ . تتبدى نقائصه التي كان يخفيها شعور الطفل بقدسيته . ولا تعود الأسرة موئلا مقدسا . إنما تبدو مجرد مجموعة عادية من الأفراد . هي أول مجتمع يطبق عليه المرء وظيفة الحكم . ويوجه له النقد . وهذا أمر طبيعي لما كانت الأسرة هي المجتمع الذي يتكون الفرد نتيجة الاحتكاك به احتكاكا مباشرا .

إذن فقد تداعى إيمان المراهق بأبيه ، ذلك الإيمان الذي يعتبر سندا وجدانيا طوال فترة الطفولة ، فكيف يتسنى له أن يواصل نموه النفسي دون هذا السند ؟ ذلك ما سنجيب عنه فيما بعد .

التمرد على السلطة المدرسية

المدرسة سلطة جديدة تشترك مع سلطة الأسرة في وظيفة التربية التي يعانيها المراهق ، خاصة وأن التعليم في المدرسة يمس على نحو خفي شعور المراهق بنقصه : فالمدرسة توفر له شتى فرص النقد والمعارضة : المدرسون وأوامرهم ، اللوائح ، الواجبات المدرسية ؛ كل هذه أمور تفرض القيود على المراهق ، وتشعره بالخضوع والنقص إزاء سلطة لا يحتملها في هذا الطور من حياته كما كان يحتملها في الطور السابق . ولذلك كان برما بالنظم ، منتهزا الفرصة للتعبير عن تبرمه ذلك : خاصة إذا كان في قسم داخلي هو بمثابة امتداد لسلطة الأسرة مع زيادة القيود إذ ينفصله بغتة عن البيئة العادية : حتى أن المراهق الثائر على الأسرة لا ترضيه هذه البيئة الجديدة التي تحرمه كثيرا من متع الحياة التي لم يكن يقدرها في كنف الأسرة . وتفرض عليه مسلكا معينا ، وتحجزه في مكان واحد ، وتضع القيود على تصرفاته لحكمة لا يلمسها المراهق في سنه تلك المبكرة ، حتى ليصبح ناقوس

الاستيقاظ بالنسبة إليه رمزا للعبودية . والداخلية مهما بلغت من التسامح وتوفر وسائل الراحة والتسلية ، لا يمكن أن تخلو من العيوب ، يتسقطها التلاميذ فى كل صغيرة تافهة ، وقد تكون عيوبا أقل من العيوب التى كانوا يرزحون تحت عبئها فى المنزل ولكنها مع ذلك مثار لثورتهم . وقد يحقق المراهق تكيفا خارجيا لهذه البيئة الجديدة دون أن يوقف ذلك من الشعور بالضيق أو بمنع الشكوى والنقد . بل قد ينعم التلاميذ بأمتع الأوقات فى مدرستهم الداخلية ، ولكنهم مع ذلك قد ينتهزون هذه الفرصة أو تلك للإفصاح عن تمردهم بأية طريقة من الطرق.

وليس خافيا عنا تلك الخلافات التى تنشأ بين المدرسين وبين التلاميذ لأسباب تافهة لا يمكن أن تكون وحدها التفسير الوحيد لتمردهم ، إنما التفسير الحق هو ذلك الغرور الذى يتذرع به المراهق لتدعيم ذاته ، والشعور الخفى بالخصومة بينه وبين أستاذه من حيث هو سلطة تهدد هذه الذات . وهذا شاب يعترف بهذه الحقيقة فيقص علينا حادثة من تلك الحوادث الكثيرة التى تقع بين طالب وأستاذه ، يقول :

« كنت دائما أنتقص من قدره كمدرس ، لا أدرى لذلك سببا ، أهو عدم كفايته ، أم عجزه عن ضبط الفصل أم هو شىء غير ذلك . . .وعلى كل حال فهو رجل طيب ، قد يفوه بألفاظ قد تصيب تلميذا يقبل الإهانة فيمر الموقف بسلام ، وقد تصيب آخر لا يحتمل مثل هذه الإهانات ؛ وقد كنت من النوع الأخير ، ولما كنت أتمتع بمركز ممتاز بين الطلبة والأساتذة ، فإننى لم أقبل مرة ما وجهه إلى هذا الأستاذ من إهانة ، خاصة وأننى كنت أشعر أنها صادرة من شخص لا يملأ عينى . كبرت الإهانة فى ذهنى ، وظننت أننى إذا لم أقتص فى الحال من الأستاذ فقد يقلل ذلك من قدرى ، فاحتججت وطلبت منه أمام الطلبة أن يعتذر ، فزادنى إهانة ، فطلبت منه أن يرافقنى إلى حجرة الناظر على قدم المساواة ، فاستكبر ذلك وزاد فى الإهانة ؛ ولكننى خشيت أن تسوء سمعتى عند الناظر الذى كان يقدرنى ، فوجدت نفسى ملجما لا أستطيع رد الإهانة . ولكننى قلت له بما شمئزاز : إننى لا أخشاك ، بل أستطيع أن أرد عليك هذه الإهانات ، ولكنك تستعمل سلطتك كمدرس ويكفينى أن أقول إن هذا التصرف منك ليس من الشجاعة فى شىء . . . »

هذا وصف دقيق لما يحدث من مواقف حرجة يتعرض لها المدرس الذى

يتجاهل نفسية المراهق . ويتضح منه اعتزاز المراهق بذاته ، وحساسيته الشديدة للنقد ، واهتمامه الزائد بتأكيد شخصيته لا أمام السلطة فحسب ، بل أمام مجتمع زملائه الذى يعول تعويلا كبيرا على آرائهم .

وهنا يحسن أن نشير إلى أن المدرسة ولو أنها سلطة تغرى المراهق بالتمرد ، إلا أنه يجد فى كنفها شيئاً كثيراً من المتعة النفسية لا يحظى بها فى منزله . ونخطئ إن كنا نظن أن جميع المراهقين يكرهون المدرسة ، فالواقع أن أغلبهم يحبها ، لا من حيث هى مكان للدرس والتحصيل ، ولكن من حيث هى مكان يهرعون إليه حيث الزمالة ، وحيث فرص اختيار أب روحى من بين المدرسين . فلنتحدث إذن عن عوامل رضا المراهق عن الجو المدرسى بعد أن تحدثنا عن عوامل تبرمه به .

نعلم أن ذات المراهق ضعيفة هشة ، وأن أكثر ما يضايقه فى هذا الطور من حياته ما يعتلج فى نفسه من مشاعر النقص ، خاصة وقد شرع يطرح روابطه الوجدانيه بأفراد الأسرة ، ويتحرر — فى خوف وإشفاق — من التبعية للأب (إن كان ولدا) أو للأم (فى حالة الفتاة) . وفى هذا التحرر خطر كبير يهدد شعور المراهق بالأمن ، فهو فى أشد الحاجة إلى سند روحى يدعم الذات بدلا من الأب أو الأم . فهو يجد فى أحد زملاء الدراسة تدعيما لذاته ؛ ومن ثمة كانت تلك الصداقات المزدوجة التى تشيع فى أوساط المراهقين ، وتكون أكثر شيوعا لدى الفتيات منها لدى الفتيان ؛ ومن ثمة كان لكلمة « تضامن الطلبة » عذوبة لدى المراهقين ، وسحر عجيب يكفل لهم تماسكا على اختلاف خصالهم وعقلياتهم ؛ ومن ثمة كانت العصابات التى تجمع بين المراهقين .

وقد سبق القول أن المراهق محب للعزلة ، كلف بالشذوذ عن المجتمع ، فكيف بنا نناقض أنفسنا ونعيد القول هنا إنه كلف بالصداقة المزدوجة ، والانخراط فى العصابات والجماعات ؟ الحق أن ليس فى الأمر تناقض ، لأن المراهق إذ يندمج فى هذه الروابط الاجتماعية لا يصدر عن روح اجتماعية حقة ، وإنما هو يندمج فيها بدافع القلق وسعيا إلى تدعيم ذاته ، فالصديق ليس إلا امتدادا لذاته هو ، ورئيس العصابة أو زعيم الجماعة ليس إلا ذاته كما يطمح أن تكون ، والرابطة بينه وبين غيره ليست إلا رابطة التآمر ضد المجتمع ، ولذلك كانت الصداقة المزدوجة تصطبغ بطابع السرية ، وكانت الجمعيات والعصابات ذات نشاط عدائى موجه إلى الجمعيات الأخرى أو إلى السلطات بوجه عام : أسرة

كانت أو مدرسة أو دولة .

أما عن اختيار أب روحى يحل محل الأب كسند روحى . فالمدرسة خير مكان يهيئ للمراهق فرص ذلك الاختيار . وفى الوقت الذى يوفق فيه إلى اختيار مدرس كبطل أو مثل أعلى يوحد نفسه به ، يزداد أمنا ، وتقل ثورته على الأسرة . ولهذا التوحد(١) أثر كبير فى تطور المراهق . وتوجيه طاقاته النفسية ؛ وهو أكثر شيوعا وقوة لدى الفتيات ، اللائى تعمر مذكراتهن بعبارات التقديس لهذه المدرسة أو تلك . والفزع لفكرة الانفصال عنهن وربما استطعنا العودة إلى ذلك الموضوع فى بحث قادم .

* * *

تحدثنا عن تمرد المراهقين على الأسرة فالمدرسة وبقى بعد ذلك أن نشير إشارة عابرة إلى تمردهم على المجتمع : الدين والتقاليد . والدولة : نظمها ومذاهبها السياسية . والعادة أن المراهق لا يتمرد على هذه الأمور إلا فى مرحلة متأخرة من المراهقة ، حين يكون قد حقق قدرا من النضج العقلى : وبلغ قسطا من الثقافة ، واستطاع أن يتخذ لنفسه مثلا أعلى أو زعيما واقعيا أو تاريخيا يوجه طاقته الوجدانية إليه ، فيعتنق مبادئه ويعمل جاهدا لتحقيقها . وغالبا ما يكون طموحه غير متناسب مع إمكانياته ، ومثاليته ممعنة فى البعد عن واقع الأمور ، وثقته فى الأبطال أكثر حماسة مما ينبغى ؛ والمجتمع أو الدولة غير مقرة لتصرفاته ، هنالك يحدث الاصطدام فيزداد برمه بالحياة ، ويحتد تبرمه إن صدم صدمة وجدانية على أثر حادث لا ينجو منه أغلب المراهقين : وفاة عزيز ، فشل فى حب ، رسوب فى امتحان ، انتقال فجائى من بلد حبيبة إلى أخرى ، اضطرار إلى الالتحاق بمدرسة داخلية ، أزمة مالية إلخ . . . فيتطور شعوره إلى إحساس بأن المجتمع ضده ، وبأنه ضحية هذا العالم الظالم الذى يعمل على تحطيم عبقريته (الموهومة فى أغلب الأحيان) ، ينضاف إلى ذلك رغباته المناقضة للعرف ، يمنعه الحياء والمثالية الأخلاقية من الإفصاح عنها ؛ وحاجته إلى الحب والعطف . فتغشاه سحابة من الكآبة والحزن ربما تطورت إلى مرض من أمراض النفس التى تنتاب من المراهقين من ليسهم الاستعداد لها .

عبد المنعم المليجى

---

(١) Identification